97) ويقولون لجمع الماء ميـــاة بالتـــاء .. والصواب أمواه للجمع الاقل ومياه للكثير (ص 298) . (مياه فى المغرب) .

98) ويقولون امراة نفيـــة .. والصواب نفســاء (ص 298) .

99) ويقولون لبيت الطعام هري (بكسر الراء) .. والصواب هري (بتسكينها) (ص 299) .

100) ويقولون لكف الانسان الى معصمه يـــد واليد اسم جامع للاصابع والكف والذراع والعضـــد (ص 301) .

ومن هذه الامثلة المائة يتضح ان عامية المغرب اقرب الى الفصحى من عامية الاندلس بواحد وثلاثين فى المائة (حيث ان 31 كلمة مشتركة من بين مائة تتخذ فى المغرب بنية عربية فصيحة فى حين ان المائة كلمة الاندلسية كلها بعيدة عن الفصحى)

من أسرار العربية في البيان القرآني

الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » القاهرة

فيما اشتغل به على المدى الطويل من دراسة البيان القرآني ، ادركت اننا سنظل محجوبين عن اسرار لغتنا ، اذا لم نعد لتجليتها فى القرآن الكريم ، معجزة النبي العربي ، وكتاب العربية الاكبر .

وذكرت اننا مضينا على ان نختار لابنائنا النماذج العليا من دواوين الشعراء ونثر الكتاب . وتمضي دراستهم للعربية وادبها ، بمعزل من هذا الكتاب المحكم المبين ، الذي يجلو ذوتها الاصيل المرهف ، فى ذروة نتائه واعجاز بيانه .

واذ اخضع فى مهمي لبيان القرآن ودلالات الفاظه ، للمنهج الدقيق الذي تلقيته من «استاذنا امين الخولي» فى استقراء الاستعمال القرآني لكل لفظ او عبارة ، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، والسياق العام فى الكتاب كله ، بدا لي بعد طول التدبر والتأمل ، انه حيثما يحشد المفسرون عدة الفاظ فى تفسير لفظ قرآني ، يعييني ان اضع لفظا منها فى موضع اللفظ الذي نزل به الكتاب المحكم ، دون ان يضيع سر الكلمة .

وما من حرف تاولوه زائدا او قدروه محذوفا ، يمكن ان تقوم العبارة على التاويل بزيادته او حذفه .

ولفتني هذا الى اسرار للعربية احتجبت عنا ، لطول ما اختلطت الدلالة القرآنية بالدلالات المعجمية ، ولطول ما احتكمت قواعد الصنعة الاعرابية والمنطق البلاغي المدرسي ، فى توجيه النص الاعلى الذي ينبغي ان تعرض عليه كل قواعد النحاة واللغويين والبلاغيين .

ولا يتسع المجال المحدود هنا لعرض كل ما اجتليت من هذه الاسرار التي حجبت عنا ، وانما حسبي ان اقدم منها المثل والشاهد ، فى سر البيان فى الحرف لا يغني عنه سواه وفى الكلمة لا يقوم مقامها غيرها من حشد الالفاظ المتول بترادفها ، وفى التعبير يتحدى كل محاولة لتاويله على غير ما جاء به فى البيان المعجز :

« لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

سـر الحـرف

ما من حرف فى القرآن الكريم ، تاولوه زائدا او قدروه محذوفا او فسروه بحرف آخر ، الا ويتحدى بسره البياني كل محاولة لتاويله على غير الوجه الذي جاء به فى البيان المعجز .

*

من سر الحرف ، اقدم هنا شواهد من حروف قرآنية ، مفردة ومركبة ، حاول المفسرون فى تاويلها أن يعدلوا بها على وجه التقدير والتاويل ، عن نظمها الذي جاءت به فى البيان الأعلى ، لكي تلبي مقتضيات الصنعة الاعرابية او احكام الصنعة البلاغية .

وبقيت هذه الحروف ، تتحدى كل محاولة لتغيير او تقدير بحذف وزيادة .

ولنأخذ مثلا ، حرف الباء فى مثل قوله تعالى :

« وما ربك بغافل عما تعملون »

« لست عليهم بمصيطر »

جرى النحاة والمفسرون على القول بان هذه الباء زائدة فى خبر «ما» و «ليس» لايعنون بزيادتها انها جاءت عبثا او لغوا ، وانما هي عندهم زائدة للتاكيد .

وقد جاء « ابن هشام » بهذه الباء الزائدة فى الخبر ، مع خمسة مواضع اخرى لزيادة الباء . وادرجها جميعا تحت حكم عام ، هو معنى التاكيد المستفاد من الباء الزائدة (1) .

ومع قولهم ان هذه الباء الزائدة فى الخبر ، للتاكيد ، جرت الصنعة الاعرابية على نصر عملها على الشكل لا المعنى . فهي تعمل فى ظاهر لفظ الخبر ويبقى الحكم الاعرابي على اصله ، منصوبا بفتحة مقدرة على آخر الخبر ، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

ونردد نحن هذا الحكم التقليدي جيلا بعد جيل . ويتلقاه الطلاب جميعا تلقينا لا يملكون الا أن يحفظوه.

دون أن نتردد فى قبول القول بزيادة الباء وقد صار من المقولات البديهية التي نقولها على وجه الضرورة والالزام .

وباستقراء ما فى القرآن من خبر « ما ، وليس » **تلقانا ظاهرة مجيء هذه الباء المقول بزيادتها ، فى خبرهما المفرد الصريح غير المؤول .**

فخبر ليس ، تلزمه الباء فى ثلاث وعشرين آية ، ولا تتخلف الا فى ثلاث آيات نعرض لها بعد حين .

وخبر « ما » النافية تلزمه الباء ايضا ، لا تتخلف فيما اذكر الا فى بعض آيات لها سياقها الخاص نتدبره بعد حين فى موضعه .

وانما يطرد استغناء الخبر عن الباء ، اذا كانت « ما » النافية ، مشلوة بالفعل كان ، فينصب الخبر به صريحا مفردا غير مقترن بالباء ، فى مثل آيات :

البقرة 16 :

« وما كانوا مهتدين »

ومعها آيتا : الانعام 144 ، يونس 45

آل عمران 67 :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا »

الاعراف 7 :

« فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين »

الأنفال 33

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

الاسراء 15 :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

الاسراء 20 :

« وما كان عطاء ربك محظورا »

يوسف 111 :

« ما كان حديثا يفترى »

الكهف 51 :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا »

مريم 64 :

« وما كان ربك نسيا »

الشعراء 8 :

« وما كان اكثرهم مؤمنين »

+ 67 ، 103 ، 121 ، 139 ، 158 ، 174 ، 190 .

---

1) مغني اللبيب : ج 1 من 91 ط الجمالية بالقاهرة 1329 .

الشعـــــراء 209 :

« ذكرى وما كنا ظالمين »

النمـــــل 32 :

« ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون »

القصـــــص 45 :

« وما كنت ثاويا فى اهل مدين »

القصـــــص 59 :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون »

الاحـــــزاب 40 :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله » .

الانعـــــام 33 :

« الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » .

والنفي بـــ « ما » فى مثل هذا الاسلـــوب ، لا يتجه الى الخبر مباشرة ، بل يتسلط على الجملة من (كان) واسمها وخبرها .

*

اما حين يكون الخبر المفرد الصريح لما ، فالباء تلزمـه ، لم تتخلف الا فى آية المجادلة :

« ما هن امهاتهم » وآية يوسف : « ما هـــذا بشـــــرا » .

وامام هذه الظاهرة الأسلوبية من غلبة اقتران خبر « ما وليس » بالباء ، لا يهون القول بانها حرف زائد ، اذ ان مقتضى القول بزيادتها ، امكان الاستغناء عنها ، وهو ما لا يومىء اليه البيان الاعلى .

والمفسرون مع النحاة فى ان هذه الباء زائـــدة للتأكيد (1) .

وفى منهجنا ، لا نؤخذ الباء فى آية من الآيات ، بمعزل عن نظائرها فى القرآن كله ، وقد نرى ان الباء كما تحتمل تأكيد النفي فى بعض الآيات ، تحتمل نقض النفي فى آيات أخرى .

فلننظر اذن فى كل الآيات التي يقترن خبر (ما وليس) فيها بالباء ، مقارنة بالآيات التي استغنـــى الخبر عن الباء ، لعل الاستقـــراء يهدينـــا الى خطـــة بيانية من أسرار العربية .

ونبدأ بخبر « ما » غير المتلوة بالفعل كـــان ، فنراها قد لزمته اطرادا فى آيات :

البقـــــرة 8 :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

البقـــــرة 74 :

« وما الله بغافـــل عمـــا تعملـــون » ـــ « يعملون » معها آيات : البقرة 85 ، 140 ، 144 ، 149 ، وآل عمران 99 .

الانعـــــام 132 :

« وما ربك بغافل عما يعملون » ـــ تعملون ـــ معها آيتا : هود 123 ، النمل 93 .

الانعـــــام 107 :

« وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل » معها : الشورى 6 .

البقـــــرة 96 :

« يود أحدهم لو يعمر الف سنة وما هـــو بمزحزحه من العذاب ان يعمر »

البقـــــرة 102 :

« وما هم بضارين به من احد الا باذن الله .

ق 29 :

« ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد » معها : فصلت 46 .

البقـــــرة 167 :

« كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »

---

1) الزمخشري : الكشاف ، ج 4 سورة القلم